الحقيقة القرآنية
بين السلف والمعتزلة

د. كامل محمد عيسى
قسم الدراسات الإسلامية
جامعة الملك عبد العزيز

بين يدى البحث:

إن الذي ألح على في الاتجاه نحو هذا الموضوع، وملك العاطفة والعقل: قسرة الأحكام المرسلة من أهل القبلة بعضهم على بعض، ثم حيرة الشباب وسط دوامة الاختلافات، فشاعت في دنياهم أصداً التفكير، وسهل على ألسنتهم التنبز بالألقاء.

هذا أردت - بترقيق الله - بجميع أطراف الصورة الإسلامية بين فريق السلف والمعتزلة، با فيها من عناصر ائتلاف، وخطوط اختلاف متنجلة زمرة المبادئ، وصراع الأفكار، وضرب الأحكام المفتعلة، ومزرا أقوال الأئمة وأحكامهم، ليبرء الشباب في ضوتها ساحة الإسلام، وتماسك أهل القبلة مما كان الاختلاف، فيخففوا من غلوتهم في إرسال أحكامهم بالتفكير على كل من خالقه في الرأى، أو باعد في الفهم، أو جانبه الصراط في الاجتهاد.

المقدم:

ما المراد بالحقيقة:

الحقيقة فعيلة من الحق يعني الثابت، فتستعمل في الشيء الذي له ثبات وجود، كقوله صلى الله عليه وسلم لخالد بن مالك: «كل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟»، أي ما الذي ينفيه عن كون ما تدعه حقًا؟ وقيل: "الدنيا باطل والأخر حقيقة لزوال هذه وبقى تلك" ۲۱.

(۱) مفردات غريب القرآن للراعي الأصفهاني.
والحقيقة أيضاً ما يصير إليه حق الأمر وحقيقة، أي يقين شأنه، وفي الحديث:
«لا يبلغ المؤمن حقية الإيمان حتى لا يعيب مسلماً بعبد هو فيه» ( يعني خالص الإيمان ومحض ) (1).

في ضوء هذا تعني بالحقيقة:
الوجود المطلق بالناءة على الصحة والسماحة والخلود .. فإذا كانت العلوم الإنسانية تتجلد مع الزمن على سنة التقدم، ولا تزال بين ناقص يتم .. وغامض يفتح .. وموضوع يجمع .. وخاطأ بقرب من الصواب .. وتخمين يترقى إلى اليقين .. ثم تتفرع القواعد العلمية بعد رسو .. أو تتعرز بعد ثبوت .. ويستأنف الباحثون تجاربهم فيها بعد أن حسبوها من الحقائق المفروغ منها عدة قرون (2).

فإن الحقيقة القرآنية هي المصدر الإلهي الذي يحمي نفسه حماية ذاتية فلا ينس فيه ما ليس منه .. ولا يرقى الشك إلى صحته وخلوده .. ليس المراد بالحقيقة إذاً ما يقابل الشريعة عند الصوفية أو ما يقابل الظاهرة عند الراقة والباطنية .. فالقرآن عند الراقة والباطنية له ظاهر لا يعبر عن حقائق الأمور في ذاتها .. وإنها هو رمز وأمثال لمعان باطنية لا يعرفها إلا الإيمان المعصوم .. وكذلك عند الصوفي فالقرآن شريعة لعامة الناس المحسونين عن معرفة الحقائق .. وله حقيقة لا يعرفها إلا من له نصيب من التجلبات الإلهية .. يقول ابن تيمية: "من قال: إنه يحتاج إلى محمد ﷺ في علم الظاهر دون علم الباطن، أو في الشريعة دون علم الحقيقة .. أو أن محمدًا ﷺ بعلم الظاهر دون علم الباطن، أو أنه علم الأمور الظاهرة دون حقائق الإيمان فقد كفر" (3).

فلينظر أهل الكتب الدينية أو نظرية أو تجربية أين هي من هذا الصدق والثبات والإعجاز القرآني؟

---

(1) لسان العرب لابن منظور
(2) الفلسفة القرآنية: عباس المقاد ص 15
(3) القرآن بين أولياء الرحمن وأولاء الشيطان ص 4-1 (بتصرف) .

84
يقول الفيلسوف الفرنسي ألكس لوزان: «ما من كتائب بشمل أي نظريات ولن كاست رياضية إلا جاء العلم ينقض بعض ما حدث حتى الكتاب الذي ألفت في القرن العشرين نفسه لم تستطع أن تصمد - من جميع جوانبها - أمام جيش العلم وكتابه النجارة.. إلا القرآن الكريم».

فما تقدم العلم خطرة إلا وكشف عن ناحية من نواحي الإعجاز العلمي فيه...

وأضاف برهانًا جديداً يؤكد أن القرآن كتب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلف تنزيل من حكيم حميد (1).

* * *

من السلف؟ وما مدى ظهر هذا المصطلح؟ «والسلف: المتقدم، قال الله تعالى» (2)، وجعلنيهم سلفاً ومشأً للآخرين (3)، وفلان سلف كرام، أي آباء كرام (4)

وضع سلاف فصد السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تقلب أراد تقدمونا، ولذا سمى الصدر الأول من التابعين السلف الصالح (5).

فالمسلم أهم الصحابة والتابعين من أهل القرن الثلاثة الأولى (6)، وأصبح مذهب السلف علمًا على ما كان عليه هؤلاء، ومن تبعهم من الأئمة كأئمة الأربعة ومعنونين الثرى.. وسفيان بن عبيد.. والфиث بن سعد.. وعبد الله بن المبارك.. والبخاري، ومسلم سائر أصحاب السنت الذين اتبعوا طريق الأوائل جيلاً بعد جيل.

وقد ظهر هذا المصطلح حين اشتد التزايد بين نحو التكلميين.. وكل يدعى أن الحق معه.. وأنه على هدى السلف وغيره من المخلصين له على باطل.

ونقل يدعى رحلاً بعلماً ولبلي لا تقر لهم بذلك.

وقد جاء مصطلح السلف على لسان أبي حنيفة (7) - 10 - (8) حين سئل: ما

(1) الإسلام والعلم الحديث ص 69 (بتصريح)
(2) سورة الزخرف، آية: 56 (3) مفردات غريب القرآن: الراغب الأصفهاني
(4) لسان العرب: ابن منظور
(5) العقدة السلفية: ابن حجر ص 1
تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ قال: عليك بالاثر وطريقة السلف وإياك وكل محدثة فإنها بدعه (1).

كما جاء على لسان العز بن عبد السلام (٥٨٧ - ٦٦٥ هـ) حيث قال:

«مذهب السلف: إذا هو توحيد وتنزيه دون تجسيم وشبهه» (2).

فليست السلفية مذهبًا ولا رؤية قديمة انصرت ومضت .. ولكن ستنظر علمًا على النظرية الإسلامية من واقع الأصوليين العظيمين: الكتب والسنة.

* * *

ما الاعتزال؟ ومتى كان؟ «الاعتزال: الاجتناب، وسبيت به الجماعة المعروفة، لأن أبا عثمان عمرو بن عبيد أحدث ما أحدث من البديع، واعتزل الحسن البصري وجماعة معه فسموا المعتزلة (3). قال عنه ابن كثير: «كان من أهل الورع والعبادة إلى أن أحدث ما أحدث .. واعتزل الحسن هو وجماعة فسموا المعتزلة» (4).

وقال المطلب: «هم سموا أنفسهم المعتزلة، وذلك عندما بايع الحسن بن علي معاوية - رضي الله عنه - وسلم إليه الأمر. اعتقدوا الحسن ومعاوية وجميع الناس، وكانوا من أصحاب علي، وزعموا منازلهم ومساجد مهموقه وقالوا: تشغفي بالعلم والعبادة، فسموا بذلك معتزلة» (5).

وقال المرتضى: «سميت كذلك لاعتزالهم كل الأقوال التي قالها من قبلهم في مرتكبة الكبيرة:

فالمراجعة تقول إنه مؤمن، واخترار تقول إنه كاهن. والحسن يقول إنه منافق.

(1) نقش المطلق: ابن تيمية ص ٨١
(2) طبقات الشافعية: السبكي ج ٨ ص ٢٢٢
(3) الأسانس: السمانع ص ٥٣٦
(4) البداية والنهاية: ابن كثير ج ١ ص ٦٨
(5) التنبيئة والرد على أهل الأهواء والبدع ص ٤١ : نشر عزلت العطار سنة ١٩٤٩

٨٦
لكن "وإلا" يقول إنه: لا مؤمن ولا كافر فله في منزلة بين المنزلتين فيكون فاسقا وله حكم بين الحكمين (1).

وأدى ذلك على أن الجماعة المذهب ذو مباديء لم يعد انفصال من مجلس إلى مجلس.. وأنه معنى من المعاني ضرورة جسمية، ولذا كانوا لا يمنعون الرجل معتزلاً إلا إذا أقر أصحابهم المفسرين وقرأ مؤلفاتهم فيها وتوجيه.. والعدب.. والوعود والوعيد.. وال منزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

المنهج الذي يسلكه البحث:

قبل أن نتناول الموضوع أحب أن أحدث خطوات المنهج الذي نسير عليه:

أولا: أخذ أراء كل فريق من كتبو ومصنفات رجال تحقيقًا للأمانة العلمية.. ووصولًا إلى الحق في جوانب الخلاف متخذا القاضي عبد الجبار الهمذاني (ت 485 هـ) أقولاً للاعتزل لأمور:

1. لأنه يمثل الاعتراف في المرحلة النهائية بعد النشأة والاكتمال.
2. لأنه يمثل الاعتراف الخالص من التشريع.
3. لأن ذلك ينجم عن التفتيش والتشريع.

ثانياً: التجرد في البحث من كل ضروب الأحكام المسألة فقد زال غبار معاركها.. وانهارت درايعها.

ثالثًا: الدراسة الموضوعية من خلال النصوص.

رابعاً: تقديم حكم الأئمة على رجال الاعتراف، ثم ما ينبرع إليه البحث من نتائج ووصايا.

خامساً: الخاتمة.

* * *

(1) المذهب والأمل ص 47
حقائق مشتركة:
إن النظرة الإسلامية المجردة من التوصيب والهوية التي ترتفع إلى الروابط بين المسلمين تتأصل بها. وتعمل على تجميع الأمهات وتقسيمها بعيدا عن الأغوار التي حفرها الزمن وعمقها البعض. لترى عناصر الالتقاء بين السلف والمعتزلة حقائق مشتركة ترد عن النفس المؤمنة غائبة الهوية والتوصيب الذميم.

1 - السلف والمعتزلة موحدون لا يشكون في الله أحداً: يقول عبد الجبار: "المتهرد لغة عبارة عما يصير الشيء وحدها"، وفي الاصطلاح: العلم بأن الله تعالى واحد لا يشاركه غيرهما فيما يستحق من الصفات نفياً واثباتاً على الحد الذي يستحقه والإقرار به.

ويقول: "لا كأن مع الله ثان لثمان، وهذا يؤدي إلى الضعف الذي لا يجوز إلا على الأسماء، فالله واحد لا يشاركه أحد في القوة والإلهية، وهذا كمال التوحيد".

2 - السلف والمعتزلة يؤمنون بالملائكة: يقول عبد الجبار: "إنه لله تعالى بين أنه خص أدم عليه السلام بأن عمه الأسماء ليكون معجزة له، فأراد أن يبين للملائكة أن هذا الاختصاص يوجب نبوته فقررهم يقول: "أنتونى بأسماء هؤلاء، إن كنت صادقين"، على ذلك.

ويقول في تفضيل الملائكة على الأنبياء عند قوله تعالى: "إن الله اصطفى أدم ونوحاً وآلل إبراهيم وآلل عمران على العالمين".

ولو نبت دخول الملائكة عليهم السلام في "العالم" لم يدل ظاهر الكلام على أن الأنبياء عليهم السلام أفضل؛ لأنه تعالى لا يجب إذا اختار في الإرسال واحداً على غيره أن يكون أفضل من ذلك الغير، وإنما علمنا أن الرسل أفضل من أهمهم للإجماع.

(1) شرح الأصول المفسرة: عبد الجبار ص 128
(2) شرح الأصول المفسرة ص 66
(3) سورة البقرة، آية: 31
(4) سورة آل عمران، آية: 33
(5) متتشابه القرآن ص 88
(6) متتشابه القرآن ص 145
و عند قوله تعالى: ۱۰۸۳ - لَنْ يَسْتَنْفَكَ النَّاسُ، فَلَا تَبْلَغُهُمَا نَفْعًا. (۱) يقول: ما أعتقد، شيوخنا، أن الله، إن الناسك، أفضل من عيسى، لأن الاستنكاف هو الأفضل، ولا يجوز في اللغة أن يقول الإنسان: إن فلاناً لا يتألف، ولا فلان، إلا والمذكور الثاني أفضل حالًا من الأول، وأشهر فضلاً منه. (۲)

۲. السلف والمعتلزل مولمون بالقرآن معجزة خالدة. يقول عبد الجبار: «فإن قيل: وما المعجز الذي ظهر على محمد؟ قلنا: معجزات كثيرة من جملتها القرآن. فإن قيل: وما وجه الإجاز فيه؟ قلنا: هو أنه نحدى بعارضته العرب، مع أنهم كانوا هم الغاية في الفصاحة. (۳)

قال في شرح قوله تعالى: ۱۰۸۶ - أم يقولون افتراء، فإن فاتوا عشر سور مثله. (۴)

منشون وادعوا من استطعتم من دون الله، إن كنت صادقين. (۴)

المراة بالآية التنبية على إجاز القرآن، لأن ذلك يجري مجرى التحدي، ثم قال: «فإن لم تجيبوا لكم» يعني في المضارع، فاعلموا أنا أنزل بعلم الله. (۵) أي أنزل من قبله وهو عالم بما عليه من الفصاحة والنظم، وكتبنه إجاز القرآن شاهد مبين.

كما يستدلون بالقرآن، وبعدونه أصولًا.

يقول عبد الجبار: «والأحكام الشرعية فإنها إذا تعلم بالخطاب وما يعمل به، ولا والله ما صح أن تعلم بالفعل، الصوتي الواجب ولا شروطها ولا أوقاتها، وكذلك سائر العبادات الشرعية. (۶)

فإن قال: فيجب أن نقولوا في القرآن إنه كله حجة.

قيل له: إننا نطلق ذلك في جميعه من حيث حصل بجميع الفرض المقصود.

(۱) سورة النسيء، آية: ۱۷۲
(۲) متشابه القرآن، ص: ۱۱۴
(۳) شرح الأصول المختصرة، ص: ۵۸۶
(۴) سورة هود، آية: ۱۳
(۵) متشابه القرآن، ص: ۳۷۵
(۶) متشابه القرآن، ص: ۳۵
وما فيه من القصص عن الأسماء الماضية لما كان الغرض بها الا اعتبارك الذي له تأثير في التكليف - حل محل الأمر فيه النهي قبل في الجميع إنه حجة (1).
وهم ينزون القرآن عن المطاعن والشهبات.

والقاضي عبد الجبار كتب سماه: "تنزه القرآن من المطاعن" عرض فيه للآيات التي تعلق بها المطاعن سواء كان ذلك من وجوه اللغة أو الإعراب أو النظم أو المعاني (2).

4 - السلف والمعتزلة يؤمنون بالنبوات. يقول عبد الجبار: "أصول الدين أربعة: التوحيد، والعدالة، والفرات، والشريعة" (3). ويقول: "لم يكن لنا أن نعلم عقلا أن هذا البطل مصلحة، وذلك مفسدة بعث الله تعالى إليتنا الرسول ليعرفا ذلك" (4). وقد أكد الرجل البلاو ومعجزاته في كتابه "ثبت دليل نبوة محمد".

5 - السلف والمعتزلة يؤمنون باليوم الآخر والسمعيات. يقول عبد الجبار عند قوله تعالى: "الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون" (5): "المراد به: إننا نرجع إلى حيث لا يتولى الحكم سواء، لأن الله تعالى في دار الدنيا قد ملك غيره الأحكام، وفي الآخرة يختص تعالى بأمر عباده" (6).

وفي السمعيات بعد إثبات عذاب القبر والرد على من ينكروه يقول: "وقد اتصل بهذه الجملة الكلام على أحوال القيامة وما يجري هناك من وضع الموازين، والمساءلة والمحاسبة وإطلاق الجواز ونشر الصحف وما جرى هذا المجري" (7).

وجملة ذلك أن كل هذه الأمور حق يجب اعتقادها والإقرار بها.

تلك عنصرا الاختلاف في الصورة تثبت بلقاء لا يعتره شك أن المعتزلة في

(1) متشابه القرآن ص 36
(2) طبع عن مخطوطة بدار الكتب سنة 1329 هـ
(3) شرح الأصول الحكمة ص 585
(4) شرح الأصول الحكمة ص 162
(5) سورة البقرة ، آية: 156
(6) متشابه القرآن ص 114
(7) شرح الأصول الحكمة ص 734

مر

مر
شخاص من ارتباط البحث مثلا لهم - يؤمنون بأصول الدين الخمسة التي جاء بها القرآن والسنة، وآمن بها المسلمون ولم يستبدلا بها أصولهم الخمسة.
فما خطوات الاختلاف؟
- مسائل اختلفوا فيها:
لا شك أن الاختلاف بين السلف والمعتزلة واضح في كثير من مسائل الدين لكن الذي نقصده بهذه الدراسة موقف كل منهما من الحقيقة القرآنية. وقد سبق أنهم متفقون في أصول الدين الخمسة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله.
ويقول أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم الأشعرى (توفي عام 260-324 هـ) : "اختلف المسلمون بعد نبيهم في أشياء ضل فيها بعضهم بعضاً، وتفارا بعضهم من بعض، فصاروا فرقة متنازعين إلا أن الإسلام يجمعهم فيهم" (1).
فما هي جوانب الخلاف؟ ثم أمن أصول الدين هي أم لا؟
أولاً: ماذا بينهما في حجية القرآن ومنزلته بين الأدلة؟
يرى القاضي عبد الجبار أحمد الجهاني إمام المعتزلة في عصره (3) 415-485 هـ. إن الكتاب أصل في الدلالة لكنهم يقدمون عليه العقل فقول: "علم أن الدلالة أربعة: حجة العقل والكتاب والسنة والإجماع" (2).
ثم يقول معللاً: "أول الأدلة دلالة العقل، لأن بيض بين الحسن والقبيح، ولأنه يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة، والإجماع" (3).
فحجة الكتاب عنهم لا يمكن القول بها قبل معرفة الله تعالى وحكمته، وأنه مفرد بالإلهية، فإذا كان سبيل هذه المعرفة هو العقل فحقة أن يكون في رأس الأدلة.

(1) مقالات الإسلاميين ص 27 (2) شرح الأصول الخمسة ص 27 (3) متشابه القرآن ص 51.
ويقول: "فإن قال: ومن أين أن صحة القرآن لا تعلم إلا بعد معرفة الله؟ قبل الله: لأن الخبر لا يعلم بصيغته أنه صدق أو كذب حتى إذا علم حال الخبر صحب، فيجب أن يعلم أولئك على أن يختار القبيح حتى يصح أن يستدل بالقرآن على ما يدل عليه...") (1).


بوحذ ذلك ابن تيمية يقول: "إن أصول الدين: إما أن تكون مسائل كمسائل التوحيد... أو دلائل هذه المسائل."

أما القسم الأول: فكمل ما يحتاج الناس إلى معرفته من هذه المسائل، فقد بينه الله ورسوله بياناً شافياً قاطعاً للعذر.

وأما القسم الآخر: وهو دلائل هذه المسائل فقد يظن طوائف من المتكملين:

أ - أن الشرع إذا يدل بطريقة الخبر الصادق فدلائه موقوفة على العلم بصدق الخبر.

ب - في ظنهم أن دلالة الكتاب إذا هي بطريقة الخبر المجرد (3).

وينقض ابن تيمية هذا الرأي بما يلي:

أولاً: ما عليه سلف الأمة وأثمنها أهل العلم والإيمان من أن الله سبحانه بين من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحد من هؤلاء قدره.

ثانياً: الأمثلة التي ذكرها الله تعالى في كتابه وقال عنها: "ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يذكرون" (4)، ونذكر الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون" (5).

(1) متشابه القرآن ص 445 / 110.
(2) النبرات ص 62 (3) النحائية الكبرى: 67 / 445.
(4) سورة الزمر، آية: 27.
(5) سورة العنكبوت، آية: 43.
هذه الأمثلة هي الأقيسة العقلية لكن يستعمل في ذلك نبائ الأولى وَلَلله
المثل الأعلى » (١). 

لقد خاطب بوسف عليه السلام صاحب السجن فقال: أُرَاب متفقون خير أَم
الله الواحد القهار؟ » (٢). فما قال أحدهما: من قائل هذا الخبر؟
لقد قال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر: » يا أبِت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر
ولا يغنى عنك شيئاً؟ » (٣). فما قال له: من قائل هذا الخبر؟
وَحَين تَلا رُسُل الله ﷺ: » يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين
تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا
يستنقذونه منه ضعف الطالب والمطلوب » (٤). ما قال أحد: من قائل هذا الخبر؟
فدلالة الكتاب في هذا ليست طريق الخير المجدد الذي يتوقف على معرفة قائله
وصدقه .. وإذا تتألب الأمثلة عقل الإنسان ومنطقه .. وحرك وجدانه
وشعاعه .. وتمضع أمام حقيقة ينطق بها واقعه رحمة.
والقرآن ملوء بهذه البراهين العقلية الدالة على ذلك ، قال تعالى: » ضرب لكم
مثالًا من أنفسكم هل لكم ما ملكت أيانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء
تخافونهم كخيفكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقيم يعقلون » (٥).
فين سبحانه أن المخلوق لا يكون مملوكًا شريكًا في ماله حتى يخفف مملوكه كما
يخاف نظيره بل تنفع نظيره أَوْ أن يكون المملوك لكم نظراً .. فكيف ترضون أن
تجعلوا مملوكاً ومخلوقاً شريكًا لى يدعه ويعدع كما أدعى وأعده؟
ويقول سبحانه: » ضرب الله مثالاً عبدًا مملوكًا لا يقدر على شيء ومن رزقنا
منا رزقنا حسنًا فهو بنفق منه سراً وجهراً هل يستوبن الحمد لله بل أكثرهم لا
يعلمه » (٦).

يقول ابن القيم: » هذا مثل ضرب الله لنفسه سبحانه والأوثان: قال الله سبحانه

١٩٣

(١) سورة التحدي، آية: ٦٠ (٢) سورة يس، آية: ٣٩ (٣) سورة مريم، آية: ٤² 
(٤) سورة الحج، آية: ٧٣ (٥) سورة الروم، آية: ٢٨ (٦) سورة النحل، آية: ٧٥
وهو المالك لكل شيء ينفق كيف يشاء على عبيده سراً وجهراً ليلةً ونهاراً .. والأرواح مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، نفكي يجعلونها شركاء لي .. ويعبدونها من دونه مع التفاوت العظيم والفرق المبين ؛ (1) ..

ويقول سبحانه : « وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صرائط مستقيم ؛ (2) ..»

يقول ابن القيم : « هذا مثل ضربه الله للأصادم التي لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل، وهي كل على عابدها .. يحتج الصنم إلى أن يعميه عابده .. ويضمه .. ويقيمه .. ويخذه .. فكيف يسوقه في العبادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد .. وهو قادر سبحانه يتكلم غني على صرائط مستقيم في قوله وفعله .. وهذا باب واسع في كتاب الله » (3) ..

ثالثاً : من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتبعين أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا يراه ولا يذوقه ولا يعقله .. ولا قياسه ولا وجوه .. فإنه ثبت عنهم بالبراهين القطعيات أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء بالهدى ودين الحق .. وأن القرآن يهدى للثني هذى أقوم ..

رابعاً : إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل ، لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النطبس ..، وتقديم العقل متنعم ، لأن العقل قد دل على صحة السمع ، ووجوب قبول ما أخر به الرسول صلى الله عليه وسلم لختان النقل لكن قد أبطلنا دلالة العقل .. وإذا أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضاً للنقل ، لأن ما ليس بدليل لا يصح لمعارضة شيء ..

والعقل إذا صدى السمع في كل ما أخر به ، ثم قال : إنه أخر بخلاف الحق كان هو تد شهد للسمع بأنه يجب قبوله .. وشهد بأنه لا يجب قبوله ، فكان هذا قدحاً ..

(1) أعلام الموقفين : ابن القيم : 160/1 وآية : 76
(2) سورة النحل ، آية : 171/1
(3) مدارج السالكين
في شهادته مطلقاً. فلا يجب قول شهادته الأولى ولا الثانية، فلا يصح أن يكون معارضاً للسمع بحال، وما علم يعقول صريح لا يخالفه خبر صريح.

والعقلص صريح ما يعرفه الناس بنظرهم من غير أن يتلقؤه (1).

خامساً: ليس في العقول الصريح ما يمكن أن يكون مقدماً على ما جاء به الرسول، وذلك لأن الآيات والbrasمين دالة على صدق الرسول. وأنهم لا يقولون على الله إلا الحق، وأنهم معصومون فيما يبلغون عن الله، فوجب أن جميع ما يخبر به الرسول عن الله صدق وحق (2).

ولأن الأنباء قد يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته لا بما يعلم العقل بطلانه

، فيخبرون بمحاورات العقول لا بجادلتها (3). ولذا يقرر ابن تيمية في فتاويه: "على الناس أن يجعلوا كلام الله ورسوله هو الأصل المتبوع والإمام المتقدم به، أما سوى كلام الله ورسوله فلا يجوز أن يكون أصلاً بحال" (4).

ثانياً: الطريق المؤدية إلى معرفة الله:

يرى القاضي عبد الجبار أن النظر في الطريق المؤدية إلى معرفة الله واجب، ثم يعينه بعرفة الأجسام.

يقول: "إن سأل سائل فقال: ما أول ما أوجب الله عليك؟ فقل: النظر المؤدي إلى معرفة الله تعالى، لأنه تعالى لا يُعرف ضرورة ولا بالمشاهدة، فيجب أن تعرفه بالتفكير والنظر" (5).

ويقول: "عرفة الله مولدة عن النظر، فلا يعرف الله ضرورة، إذ لم كانت معرفة الله ضرورة لما اختلف فيه العقلاء كما لا يختلفون في الضروريات، ولأجرعوا على معرفته حق المعرفة إجمالهم على سواد الليل وبيض النهار. ولهما

(1) المرجع السابق ص 137
(2) المرجع السابق ص 171/1
(3) الفتاوى الكبرى لأبنا تيمية ص 170/5
(4) شرح الأصول الخمسة ص 39
(5) درء تعارض العقل والنقل ص 173/1
وجدنا من يَكَفِّرَ بِاللهِ، وَيَلِدُ فِيهِ، يَلِدُ مِن يَرِثِهِ بَعْدِ إِيَانِ. فَأَفْلَمْ نَأَكِلَ مَعْرَفَةَ الْلَّهِ لَيْسَ ضَرُورِيًا، ذَلِكَ لِأَنَّ الْعَلَمَ الْضَرُوريِّ هُوَ عَلَمُ اضْتِرَارِيُّ مُبْتَدَأٌ فِي الْقَلْبِ. (١)

وَيُقَالُ: "إِنَّ الْعَلَمَ بِكَمَالِ التَّوْحِيدِ، لَأَحْصُلُ مَا لَمْ يَحْصُلَ الْعَلَمُ بِحَدُودٍ الْأَجْسَامِ، فَالْاسْتِدَالُ بِالْأَجْسَامِ عَلَى الْلَّهِ أَوْلِيَاءُ مِنَ الْابْتِدَالِ بِقِيرُهَا... لِأَنَّ الْابْتِدَالُ بِالْأَجْسَامِ يَتَضَمِّنُ إِثْبَاتَ الأَعْرَاضِ وَحَدُوْثُهَا".

قالوا: العالم يتقسم إلى جواهر وأعراض. والأعراض لا تبقى زمنين متتاليين، وإلاً بطرأ عليها التغيير والتحويل فهي حادثة.

والجواهر لا تتعري عن الأعراض التي هي ملازمة لها.. وما دامت الجواهر لا تنفك عن الأعراض التي هي حادثة.. فإنها حادثة بعد حدوثها لأن ما لازم الحادث فهو حادث.

وما دام العالم مكونا من الجواهر والأعراض وقد ثبت حدوثها، فالعالم حادث.

.. وكل حادث لا بد له من مُعاْدَةً (٢).

فالقضي بيني أرائه على أساسين:

١ - إنكار إيان الفطرة.

٢ - الاستدلال بالأجسام.

فما موقف السلف؟

مذهب السلف أن معرفة الله مغروزة في ضمير كل إنسان فهو مفطر عليه

للأذلة الآتية:

١ - العهد بين الله والفطرة في قوله تعالى: "وَإِذْ أَخَذْنَ رَيْكَ مِن بَنِي أَدْمِ مِنْ ظَهُورِهِمْ ذِرْيَتِهِمْ وَأَشْهَدْنَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلْسَتْ بِرِيْكَ بَلْ قَالُوْنَ بَلَى" (٣).

٢ - قوله تعالى في الحديث القدسي: "خَلَقتُ عِبَادَي ضَعْفًا فَاجتَنَبُوهَا الشِّبَاطِينَ عَنْ دِينِهِمْ...".

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٥٤ (٢) شرح الأصول الخمسة ص ٩٩ (٣) سورة الأعراف آية: ١٧٢
3 - قوله صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ونصارى... وقبسائه كما تنتج البهيمة بهيئة جمعاء هل تحسن فيها من جدعهم حتى تكونوا أنتم تحجرونها إفرضاً إن شتمتم فأقم وجهك للدين حيثما فطرة الله التي فطر الناس عليها."

4 - جهو الإنسان عند الفزع إلى ربه: "هـ الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنت في الشقي وجرين بهم بريع طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاهم الموج من كل مكان ونظروا أنهم أحبط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لأن أغجتنا من هذه لنكون من الشاكرين."

5 - دعوة الرسول إلى أمهم تطالب بعبادة الله: "ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت.\(^{1}\) والدعوة إلى العبادة فرع الإقرار بوجود المعبر ومقربته."

6 - إنكار الفطرة ورباعتها مناقضة للعقل. يقول ابن القيم: "معمل أن وجود الله تعالى أظهر للعقل والفكر من وجود النهار، ومن لم يرى ذلك في عقله ففكره فليتهمهما."

ويقول: "سمعت شيخ الإسلام يقول: كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء.. وكثيرًا ما كان يتمثل بهذا البيت:"

"هل يحي رأسنا، هل يرى الأذنان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل؟
ولو لم يكن في صريح العقل ما يدل على ذلك لم يكن في قوله تعالى: "قل انظروا ماذا في السماوات والأرض؟\(^{5}\) ، "قل سيروا في الأرض فانظروا\(^{2}\)."

ويقول ابن تيمية: "معمرة الله ليست معدودة من النظريات التي يقوم عليها البرهان، وإن الفطرة تشهد بضرورةها وبدية فكرتها بالصانع الحكيم.. وأن ما تنتهي إليه مقدمات الاستدلالات دون ما شهدت به الفطر الإنسانية من احتياج الإنسان في ذاته إلى مدير."

\(^{1}\) سورة الروم، آية 36
\(^{2}\) سورة يسوس، آية 22
\(^{3}\) سورة النحل، آية 46
\(^{4}\) من داخل السالكين، ص 46
\(^{5}\) سورة برونس، آية 101
\(^{6}\) سورة العنكبوت، آية 20

97
لكن بعض الناس قد ينكر الصانع كنموذج وفرعون، وتكون المحاجة، وهذا لا
يمنع من أن تكون المعرفة مستقرة في الفكرة ثابتة بالضرورة.
أما ما يحدث من بعض الناس من منازعات في القضايا البديهية، والمعارف
الفطرية تنوع من السفسطة يعرض لبعض الناس عبءا أو خطأ (1).

يقول العقائد: "الإنسان له وعي يقيني بوجوده الخاص، ولا يخلو من وعي
يقيني بالوجود الأعظم، لأنه متصل بهذا الأوجود، بل قائم به. فإذا قالت البديهة
العقلية: نعم هناك إله فهذا القول له قيمة في النظر الإنساني لا تقل قيمة عن
قيمة المنطق والقياس.

ثم يستشهد بالتاريخ يقول: "إذا رجعنا إلى تاريخ الإنسان في بني الإنسان
وقد أن اعتقاده على الوعي الكوني أعظم جدا من الإعتقاد على القضايا المعرفية.
وتزيد المعنى وضوحاً وتأكيداً فيقول: "إن البراهين جمعها لا تغني عن الوعي
الكوني في مقاربة الإيمان بالله... والشعور بالعقولية الدينية... وأن الإحاطة
بالحقيقة الإلهية شيء لا يحصر في عقل إنسان... ولا في دليل يخفض عنه عقل
إنسان" (2).

ويقول الشهيد صيد قطب عند قوله تعالى: "ولقد صرنا في هذا القرآن ليذكروا
ما يزيدهم إلا تفروح" (3).

» جاء القرآن بالتوحيد... وسلك إلى تقرير هذه العقيدة وإيضاحها طرفاً شتى... 
وأساليب متنوعة... ووسائل متعددة... ليذكروا... فالتوحيد لا يحتاج إلى أكثر من
الذكرا... والرجوع إلى الفكرة ومنطقها... وإلى الآيات الكونية ودلائلها" (4).

7 - لم يرد التكليف بعرفة وجود الصانع... وإنما ورد بالتوحيد ونفى الشريك.
قال تعالى: "فاعلم أنه لا إله إلا هو" (5). وقال صلى الله عليه وسلم: "أمرت
أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله".

(1) د. محمد، تعارض المقتطع والنقل: 21/5 14/4 2/12، الآية: 43. (2) في كتاب "تفاهيم القرآن" للدكتور محمد، ص 243 (3) سورة الإسراء، آية: 44 (4) في: "القرآن" للدكتور محمد، ص 19.
وهذا جعل محل النزاع بين الرسل وبين الخلق في التوحيد ونبي الشريك ۱.
قال تعالى: { ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم وأن يشرك به تؤمنوا ۲. }
أما موقف السلف من استدلال المعتزلة بالأجسام ووجوب النظر فيه فإنهم
ينقضون هذا المذهب بالأدلة الآتية:
أولاً: يأخذون على دليل الأجسام أموراً:
١- طول المقدمات، وكثرة التقسيمات، مما يجعل الدليل صعباً على الجمهور.
٢- الجسم المساوي مشكوك في إلحاقه بالشاهد، والشک في حدوث أعراضه كالشک في حدوث نفسه، لأنه ليس محسوساً لنا ولا أعراضه نحن من آب لنا.
إثبات حدوثه؟
٣- أنه لا يدل على إثبات صانع عبئنا، وإذا يدل على أمر كلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه.
فإذا قلنا: هذا مُحَدَّث، وكل مُحَدَّث لا بد له من مُحَدَّث، إذا يدل على مُحَدَّث مطلقة، ولر عين بأنه قدمن أزلي فال نتيجة تدل على أمر كلي غير معين.
ولا تدل على الموعد لها بذاته، إلا إذا اقترحت بعدها الفطر، وهو لا يقر بها.
٤- بالغ حيث جعل النظر في دليل الأجسام أول واجب على المكلف، ومن لم ينظر في هذا الدليل لم يصح إيمانه، وهذا باطل لأنه مفرع على أصل باطل.
ثانياً: يقول ابن تيمية: { إن هذا نظر واستدلال ابتداعه: }
١- ليس هو المشروع لا خيرًا ولا أمراً، وهو استدلال قاسد لا يوصل إلى العلم.
٢- إن علماء المسلمين يعلمون بالاضطرار أن الرسول لم يدع الخلق بهذا النظر، ولا بهذا الدليل لا عامة الخلق ولا خاصتهم ثم اعتبر أن يكون شريطا في الإيمان والمعلم.
٣- قد شهد القرآن والرسول من شهد له من الصحابة وغيرهم بالعلم، وأنهم عالمون بصدق الرسول وما جاء به، وعالمون بالله يبيته ولا إله إلا الله، ولم يكن

(١) درر تعارض العقل والنقل : ٣٩٨/٧ (٢) سورة غافر، آية: ١٢
الموجب لعلمهم هذا الدليل المعين. قال تعالى: «شهد الله أنه لا إله إلا هو
والملائكة وأولوا العلم قالوا بالقسط» (1) وقد وصفهم الله باليبقين.. والهدى...
والبصيرة في غير موضع فقال في شأنهم: «ولآخرها هم يوقنون» (2) «أولئك
على هدى من ربهم» (3) «قل هذه سبيل أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن
تبعني» (4) (5).

ثالثاً: النظر والاستدلال الذي ارتضاء صفة الأمة إما هو بالآيات والأدلة التي
بعث الله بها رسوله. وأيآ الخلق من العدد أقوى الأدلة على الخلق جل وعلا. قال
 تعالى: «أولاً يذكر الإنسان أنا خلقته من قبل ولم يك شبيهًا» (6). «إذا خلقنا
الإنسان من جهة أمثال نبتيله» (7) «قلينظر الإنسان من خلق؟» (8).
فالاستدلال على الخلق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامات وهي طريقة
عقلية صحيحة وهي شرعية: لأن القرآن ذكر عليها .. وهدى إليها .. وبينها ..
وأمر بها ..

وهي عقلية: لأن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن .. ومولوداً ومخلوً
من نطفة .. ثم عقلة .. ثم مضغة هذا لم يعلم بجرد خبر الرسول .. وإنما يعلمه
الناس كلهم بقولهم سواء أخرى الرسول أو لم يخبر» (9).

رابعاً: يمثل ابن تيمية لإعراض المعتزلة عن هذه الأدلة فيقول: «سبب
إعراضهم عن الفطرة العقلية.. والشرعنة النبوية ما ابتدعه المبتدعون بما أفسدوا به
الفطرة والشرع نصاراً يفسرون في العقليات ... ويقرّرون في
السمعات» (10).

خامساً: يعطي الطوافب تفصيلاً رائعاً في القضية فيقول عند قوله تعالى:

«ناعم أنه لا إله إلا الله واستغفر للذينب» (11).

(1) سورة آل عمران ، آية: 18 (2) سورة البقرة ، آية: 4 (3) سورة البقرة ، آية: 3 (4) سورة يوسف ، آية: 8 (5) النبوات ص 47 ، آية: 18 (6) سورة مريم ، آية: 67 (7) سورة الطارق ، آية: 2 (8) النبوات ص 52 ، آية: 8 (9) النبوات ص 42 (10) سورة محمد ، آية: 111 (11) النبوات ص 55
يحج ب على تقديم أصول الدين كالتوحيد على فروعه كالاستغفار وغيره لتقديمه التوحيد هنأ ، ولأن رتبة الأصل قبل رتبة الفرع.
وعلى أن المعتبر في الأصل العلم لا غيره لقوله : "فاعلم ... " وهذا فيه تفصيل:
هو أن ما كان من الفضائل الأصولية بدهياً استوى فيه العالم وغيره .. واعتبر فيه العلم.
وما كان نظرياً : فإن كان قريباً من البديهي جاز أن يكلفه العلمي بالنظر فيه لعلم.
وإن لم يكن قريباً بعد أن يكلف به العالم لإقليمه إلى تعطيل معاشه خصوصاً مع كثره الشبه ودقاته . ثم يقول : وكان النبي ﷺ يقنع من عامة الناس بجرد التصديق والانقباض لما جاء به ، ولو وجب عليهم العلم النظري لبيتهم لهم (1).
وليس معنى ذلك جواز التقليد في الأصول . فقد أمر الله بالعلم بالتوحيد:
"فاعلم أنهلا إله إلا هو " (2) ، وطالب بالبرهان وجعله آية الصدق "قل هاتوا برهمكم إن كنتم صادفين " (3) ، وجعل النذور لا غنا فيها فقال : " وإن الظن لا يغنى عن الحق شيئاً " (4) . وإذا المقصود نفى وجوب تأليف الأدلة على نظام المقاطعة ، أو التزام طريقة المتكلمين ، وبيان أن طريق القرآن أفضل وأمثل ، فالاستدلال على الخلوق بخلق الإنسان في غاية الاستقامة . وجعل سبيله الدورة على بصيرة : "قل هذه سبيلنا أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني " (5).

بما يقرر أن العلم بالله وإثبات وجوده من نوع العلم الضروري الذي لا يد للإنسان فيه ، وليس من العلوم الاستدلالية التي يحصلها الإنسان كما تدعى المعتزلة.

(1) الإشارات الإلهية ص 158
(2) سورة محمد ، آية : 19
(3) سورة النمل ، آية : 64
(4) سورة النجم ، آية : 38
(5) سورة بوسف ، آية : 108

111